الشعر المصري في مائة عام

علي ابو النـــصر

... — ١٨٨٠

للاستاذ محمد سيد كيلاني

ولد الليثي علي ابو النصر في مدينة سمالوط في صعيد مصر

ورحل إلى القاهرة والتحق بالأزهر . ويقرن اسمه عادة باسم زميله الليثي ، فقد كانا تديمين للخديو اسماعيل . غير أنه كان أسبق من صاحبه في الظهور في ميدان الشعر وفي الاتصال بالحكام . فقد روى أن محمد علي باشا أرسله ضمن بعثة إلى الآستانة لحضور فرح أقامه السلطان عبد المجيد . ثم اتصل بسعيد ومدحه ورثى ابنه طوسون بقصيدة طويلة . ثم اتصل باسماعيل وأصبح من ندمائه المقربين إليه . وقد قيل إنه (١) كان طيب الفاكهة والمجالسة ، لطيف السامرة والمؤانسة ، حاضر الذهن لا يغالبه في المناظرة من عاده . وكان له مطايبات مشحونة بالنكت الأدبية مع الحشمة والحذر مما تأباه النفوس الأدبية . وقد صحب الخديو اسماعيل في بعض رحلاته إلى دار الخلافة . ومات في أوائل حكم توفيق .

وله ديوان شعر مطبوع منه بعض نسخ بدار الكتب المصرية

* * *

امتاز ابو النصر علي الليثي بولعه العظيم بالمحسنات اللفظية من تورية وجناس وطباق . وكان أمتن أسلوبا من صاحبه إلا أنه كان يشبهه من حيث الإفلاس في المعاني والمفردات اللغوية . ومن قوله يمدح سعيدا :

أشرقت أنوار إقبال السعيد ... فازدهى روض التهاني بالصعيد

وابتهاج الأنس أضحى شاهدا ... بانتظام الشمل في عز مديد

والليالي بالأماني أقبلت ... باسمات الثغر عن در نضيد

ويلاحظ هنا أن الشاعر ذكر « الروض » و « الأنس » و « الليالي الباسمات » و « الأماني » . وهو بهذا يذكرنا بصاحبه الليثي في قصيدته التي يقول فيها :

أنعم بطيب ليال لحن كالغرر ... في جبهة الدهر تسمو عن سنا القمر

بها تزف الأماني في مواكبها ... لكل راج ويرعاها أخو السمر

إلا أن أبا النصر كما ترى أجود قولا من صاحبه . والصورة الشعرية التي في قوله :

(١) انظر مقدمة ديوانه

جاهزة بأعظم الأوامر لشحنها ، ان حملتنا لم تذهب سدى لأن العلم يملك النتائج الطيبة فحسب . — فقاطعه قائلا . بكل أسف أن أعمالنا سيستولي عليها الانكليز وبذلك تذهب جهودنا عبثا . فاجابه « اتيين » من فوره : كلا ، سنقابل القائد الانكليزي وسوف نقنعه بأنه مخطيء في تنفيذ فكرته وفعلا ذهب وقابل هو والعلماء القائد الانكليزي وبسط له فكرته بشأن المادة السادسة عشرة القاضية بتسليم الجيش الفرنسي كل معداته . — فرد عليه « أتيين » بقوله ليس هذا عملا حربيا ، انما هذه أعمال قام بها العلماء خدمة للعلم . فاجابه « هوتشنسون » لقد وقع على المادة السادسة عشرة وليس في إمكاني عدم تنفيذها .

فاجابه أتيين : مادام الأمر كذلك فاننا نرفض ان نسلمكم ثمرة جهودنا . وسنتلف كل هذه الثروة التي جمعناها قبل أن يدخل جيشكم هذه المدينة . ولدى مجيئكم لا تجدون سوى رماد هذه الكنوز . فأيد أعضاء البعثة قول « أتيين » قائلين سنتلف كل ما لدينا .

وزاد (اتيين قائلا — ستسلم أوروبا كل شيء . لقد احرقت فيما مضى مكتبة الاسكندرية ؛ وتعبث انكلترا اليوم باعمال العلماء الرائعة المجيدة في ميدان العلوم فلن تنسى عملها الأجيال .

فاثرت بلاغة هذا العالم الشاب في القائد الانكليزي وألغى المادة السادسة عشرة ورجع العلماء بكنوزهم إلى فرنسا . ورافق بعدئذ نابليون في حملة البورتغال واسبانيا وزاد في ثروة العلم بما عمله من اكتشافات في ميدان التاريخ الطبيعي .

ومات سنة ١٨٤٤ بين اسرته مأسوفا عليه من أبناء وطنه ومكرما من كل أوروبا .

ترجمة

وديع شحيد

أستاذ اللغة العربية في مدرسة التجارة الثانوية بدمشق

والليالي بالأماني أقبلت باسمات الثغر عن در نضيد

خير بكثير من الصورة التي في قول الليثي:

بها تزف الأماني في مواكبها لكل راج ويرعاها أخو السمر

ولم يقف أبو النصر عند المدح طويلا، بل اكتفى بهذه الأبيات الثلاثة. ثم انتقل إلى ذكر الجيوش السعيدية. وقد أجاد في الانتقال. فبعد أن ذكر الليالي المقبلة بالأماني، قال:

معربات عن جيوش تزدري بالآلي وهي في العقد الفريد

سادة إذ شيدوا بيت العلا لم يزل مدحي لهم بيت القصيد

إن بدت أعلامهم في موكب جاءت البشرى على خيل البريد

أو تبدى طيفهم يوم الوغى مزقت منه المدى خوف الوعيد

والذي يظهر لي من هذه الأبيات أن الشاعر وضع نصب عينيه عبارات «العقد الفريد» و «بيت القصيد» و «خيل البريد» ثم شرع ينظم كل بيت بحيث يتفق مع إحدى هذه العبارات. ولذلك كانت معانيه تافهة. وما قيمة خيل البريد هذه بجانب الأسلاك البرقية وقد عرفت في مصر منذ عهد محمد علي؟ ووصف الجيوش بأنها تزري باللآلىء غير جيد لأنه جعل هذه الجيوش أداة للزينة تفوق اللآلىء في الحسن والجمال. ولكن عبارة «العقد الفريد» قد استهوته وسيطرت على تفكيره فساقته إلى هذا الوصف وكذلك قوله:

سادة إذ شيدوا بيت العلا ... الخ فلم يذكر بيت العلا إلا ليقول بيت القصيد. ثم استطرد في وصف هذه الجيوش في أبيات ذكرناها عند الكلام عن عصر سعيد.

وقد لاحظنا أن الليثي كان يبدأ المدح بذكر الليالي والأماني والأنس ويأتي بصور الرياض والأزهار والطيور والجداول وغير ذلك. أما أبو النصر فكان يبدأ في الغالب بغزل طويل متكلف ممل، ثم ينتقل إلى المدح الذي لا يستغرق فيه سوى أبيات قليلة قد تصل إلى أربعة أبيات أو خمسة. ومن قوله يمدح اسماعيل:

إليك خديوي مصر تصبو الحامد ومنك ترجى للأنام الفوائد

وعنك حديث المجد يروى صحيحه وفيك لآيات الفخار شواهد

وأنت أخو العليا وأنت أبو الفدا وأنت لكف الدهر كف وساعد

وجودك للأوطان عز ونعمة وجودو بحر فيه تحلو الموارد

إلى ملك الدنيا تود انتسابها لما علمت في الكون أنك واحد

وما مصر في الأقطار إلا كجنة وذكرك فيها بالمكارم خالد

وعدلك في كل الممالك ثابت فكل مليك شاكر لك حامد

وليس في هذه الأبيات سوى مدح الخديو بالكرم والتفرد بالمجد ونشر العدل. وقد بالغ في هذا مبالغة ظاهرة؛ فجعل الدنيا تود أن تنتسب إلى الممدوح لما لم تجد له شبيها. وجعل عدل الخديو مشهورا في جميع ممالك الأرض حتى أن ملوك العالم قد شكروه وأثنوا عليه لما سمعوا بإنصافه وهذا عبث وهراء اضطره إليه ضيق المجال.

وقال:

عودت عن أقطار ملكك رحلة بها سارت الركبان والسعد قائد

وسرت فطاف النصر حولك ساعيا وغيرك من درك المآرب قاعد

والمعنى تافه كما ترى. والطواف والسعي يكونان حول شيء ثابت. والصورة المنتزعة منهما لا تتفق مع الصورة التي توحي بها كلمة «سرت» ولو قال «وسرت فسار النصر فوقك ساعيا» لكان موفقا. والظاهر أنه كره أن يكرر الفعل ثلاث مرات في بيتين متتاليين. فإن صح هذا فقد كان بوسعه أن يقول «وسرت فكان النصر حولك ساعيا.»

ثم قال:

وصلت إلى دار الخلافة زائرا مليكا له بالمكرمات عوائد

مليك حباك الود في غاية الصفا وشاطرك الآرا ونعم المقاصد

والمعنى في منتهى الضعف. وقوله «في غاية الصفا» من عبارات الدهماء. وقوله «وشاطرك الآرا ونعم المقاصد» خلو من المعنى. وقال:

عنالك شاهدت المحاسن كلها ولا زلت للصنع الجميل تشاهد

ومعناه قد بلغ الغاية في التفاهة.

وقال:

ولكن إلى مرآك مصر تشوقت ومنها إليها صادر الشوق وارد

نأيت فكاد النيل يبخل بالوفا وعدت فوافى جيره وهو زائد

وقوله «ومنها إليها» من ردىء التراكيب. وليس في البيتين من المعنى ما يستحق الذكر. ويلاحظ أنه يكثر من تشبيه جود الممدوح بالبحر. وقال من قصيدة أخرى:

فهو المليك الذي علا مآثره وفائض الجود من جدواه امداد

الفرد العلم الأسمى علا شرفا وفاض بحرا فكم ترجوه وراد

كالغيث جادبما يغني الأنام بلا من فجدواه إنجاز وايجاد

وليس في هذه الأبيات سوى مدح الخديو بالكرام

للكلام بقية

محمد سيد كيلاني